الدب الوفي

دار
شهرزاد



حكايات جدتي

الدب الوفي



دار شهرزاد

الدب الوفي

كانَ في إحدى القُرى فلّاحةٌ عجوزٌ ، فقيرةُ الحالِ ، تَعيشُ مَعَ بِنْتَيْها عيشةً بَسيطَةً وَمُتواضِعَة .

وكانَتِ البِنْتانِ تُشْبِهانِ شَجَرَتَي الوَرْدِ البَيْضاء والحَمْراء اللَّتَيْنِ تُزَيِّنانِ حديقةَ بَيْتِهِما ، لِذلِكَ سَمَّتْهُما أُمُّهُما : « ناصِعَةَ » وَ « قانِيَة » .

وكانَتِ البِنْتانِ ، بالإضافةِ إلى جمالِهِما عاقِلَتَيْنِ ، مُهَذَّبَتَيْنِ ، وَمُساعِدَتَيْنِ لِأُمِّهِما . حَتّى أَنَّ إنْساناً لَمْ يَرَ في حياتِهِ مِثْلَهُما فتاتَيْنِ مَحبوبَتَيْنِ .



فِي الصَّيْفِ كانَتْ « ناصِعَةُ » تَسْتَيْقِظُ باكِراً وَتَقْطِفُ مِنْ أَزْهارِ ٱلْحَديقَةِ باقَةً جَميلَةً تَضَعُها أَمامَ سَريرِ والِدَتِها.

وَفي الشِّتاءِ كانَتْ « قانِيَةُ » تَسْتَيْقِظُ في الصَّباحِ لِتُشْعِلَ النّارَ في المِدْفَأة.

وَكانَت ٱلأُخْتانِ تَقومانِ بِنُزْهاتٍ طَويلَةٍ في ٱلْغابَةِ. وَما كانَتْ أُمُّهُما لِتَقْلَقَ عَلَيْهِما، لِأَنَّها على ثِقَةٍ تامَّةٍ مِنْ أَنَّ ٱلحَيَواناتِ لا تُضْمِرُ لَهُما شَرّاً، وَلَنْ تَمَسَّهُما بِسوء. بَلْ إِنَّ ٱلحَيَواناتِ الشَّرِسَةَ كانَتْ تَقْتَرِبُ مِنْهُما بِكُلِّ حَنانٍ وَتَلْعَبُ مَعَهُما بِرِفْقٍ وَلين.

وَعِنْدَما أَقْبَلَ الشِّتاءُ قالَتْ لَهُما أُمُّهُما:

ـــ لَقَدْ حانَ ٱلْوَقْتُ لِإِغْلاقِ ٱلْبابِ بِالْمِزْلاج.

ثُمَّ ٱنْصَرَفَتْ إِلى كُرْسِيِّها فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ وَأَثْبَتَتْ نَظّارَتَيْها على عَيْنَيْها وَتَناوَلَتْ كِتاباً وَراحَتْ تَقْرَأُ مِنْهُ على بِنْتَيْها ٱلْجَميلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَلَسَتا عِنْدَ قَدَمَيْها تُصْغِيانِ



لِدُروسِ أُمِّهِما .

وَذاتَ مَساءٍ سَمِعْنَ طَرْقاً مُتَوالِياً على الباب . فَأَشارَتِ ٱلأُمُّ إلى « قانِيَة » قائِلَة :

ــ إفْتَحي البابَ يا بُنَيَّتي فَلَعَلَّ الطّارِقَ غَريبٌ قَدْ ضَلَّ الطَّريقَ وَجاءَ يَطْلُبُ ٱلْمَأْوى .

ما كادَتْ « قانِيَةُ » تَفْتَحُ ٱلْبــابَ حَتّى عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَها ، فَقَــدْ وَجَدَتْ أَمامَ ٱلْبابِ دُبّاً هائِلاً أَسْوَدَ اللَّوْنِ ضَخْمَ ٱلْجُثَّة ... فَصَرَخَتْ بِارْتِياعٍ وَقَفَزَتْ إلى ٱلْوَراءِ وَهِيَ تَرْتَجِفُ مِنَ ٱلْخَوْف .

أَمّا « ناصِعَةُ » فَقَدِ ٱرْتَمَتْ بَيْنَ ذِراعَيْ أُمِّها وَقَدْ عَقَدَ ٱلْخَوْفُ لِسانَها .

ما كادَ الدُّبُّ يَتَوَسَّطُ ٱلْغُرْفَةَ حَتّى جَلَسَ بِتَواضُعٍ وَقالَ بِصَوْتٍ عَذْبٍ فَصيح :

ــ أَرْجو ٱلْمَعْذِرَةَ ، لِهذا ٱلْخَوْفِ الَّذي سَبَّبْتُهُ لَكُم.





إِنّي أُطَمْئِنُكُمْ وَأُعاهِدُكُمْ على أَلّا أَمَسَّكُنَّ بِأذى . إنَّ اللَّيْلَةَ قارِسَةُ ٱلْبَرْدِ وَلَسْتُ أَطْلُبُ سِوى الدِّفْءِ قُرْبَ نارِكُمُ الصَّغيرَةِ .

فَأَجابَتْهُ الأُمُّ وَهِيَ مُحْتَفِظَةٌ بِهُدوئِها :

ــ أَهْلاً وَسَهْلاً بِكَ. إِذْهَبْ وَٱجْلِسْ قُرْبَ ٱلْمِدْفَأَةِ وَلكِنِ احْذَرْ أَنْ تَشْتَعِلَ النّارُ بِشَعْرِكَ ٱلْجَميل .

بَدَتْ عَلائِمُ السُّرورِ على وَجْهِ الدُّبِّ ، فَٱلْتَفَتَ إلى الأُخْتَيْنِ وَقالَ لَهُما :

ــ وَأَنْتُما أَيَّتُها الصَّغيرَتانِ تَقَدَّما مِنّي وَٱنْزَعا الثُّلوجَ عَنْ جِسْمي .

أَسْرَعَتْ « ناصِعَةُ » وَ « قانِيَةُ » وَأَخَذَتا فُرْشاةً وَمِكْنَسَةً ، وَراحَتا تَنْفُضانِ الثَّلْجَ ٱلعالِقَ بِشَعْرِ الدُّب . وَلَمّا ٱطْمَأَنَّتا إِلَيْهِ أَخَذَتا بِمُلاعَبَتِهِ وَمُلاطَفَتِهِ .. وَمُعاكَسَتِهِ أَحْياناً .





وَلَمَّا حانَ وَقتُ النَّوْمِ قالَتِ ٱلأُمُّ لِلدُّب :

– إبْقَ ، هُنا ، ٱلوَقْتَ ٱلَّذي يَحْلو لَكَ ، تَدَفَّأْ جَيِّداً وَٱسْتَرِحْ كَما تُريد .

وَعِنْدَما طَلَعَ الصَّباح ، شَكَرَ الدُّبُّ لِمُضيفاتِهِ حُسْنَ ٱسْتِقْبالِهِما ، وَٱتَّخَذَ سَبيلَهُ نَحْوَ ٱلْغابَة . وَفي ٱلْمَساءِ عادَ إلى ٱلْمَنْزِلِ ... وَهٰكَذا أَمْضى الشِّتاءَ : لَيْلاً قُرْبَ ٱلْمِدْفَأَةِ في مَنْزِلِ صَديقاتِهِ ، وَنَهاراً في الغابَة .

* * *

لَمَّا أَقْبَلَ الرَّبيعُ ، شَكَرَ الدُّبُّ مُضيفاتِهِ : ٱلأُمَّ وَبِنْتَيْها وَقالَ لَهُما :

– إنَّني مُضطَرٌّ إلى تَرْكِكُنَّ ٱلآنَ ، وَأَنا شاكِرٌ لَكُنَّ حُسْنَ ضِيافَتِكُنَّ وَآمَلُ أَنْ أَلْتَقِيَ بِكُنَّ في نِهايَةِ الصَّيْفِ ٱلْقادِمِ .



حَزِنَ ٱلجَميعُ لِفِراقِ الدُّبِّ، وَكانَ أَكْثَرَهُنَّ حُزْناً « ناصِعَةُ » الَّتي لَمْ تَدَعْ آثارَ ٱلْحُزْنِ تَظْهَرُ على وَجْهِها.

وَفي ذاتِ يَوْمٍ بَيْنَما كانَتِ ٱلأُخْتانِ تَجْمَعانِ ٱلْحَطَبَ مِنَ الغابَةِ، لَمَحَتا قَزَماً مُخيفاً يَقْفِزُ قُرْبَ جِذْعِ شَجَرَةٍ مُلْقًى على ٱلأَرْضِ.

إِقْتَرَبَتِ ٱلأُخْتانِ مِنْــهُ فَشاهَدَتاهُ يَقْفِزُ وَيَئِنُّ مِنَ ٱلأَلَمْ بَعْدَ أَنْ عَلِقَتْ شَعَراتُ ذَقْنِهِ في شِقِّ الشَّجَرَة.

ما كادَ ٱلقَزَمُ يَراهُما حَتّى صَرَخَ فيهِما قائِلاً:

ــ ماذا تَفْعَلانِ هُنا أَيَّتُها ٱلفَتاتانِ ٱلْحَمْقاوان؟ أَلا تَرَيانِ ذَقْنِيَ قَدْ عَلِقَتْ في شِقِّ الشَّجَرَة. أَسْرِعا وَخَلِّصاني مِنْ هٰذا ٱلعَذابِ ٱلأَليم!

حاوَلَتْ « ناصِعَةُ » وَ « قانِيَةُ » بِكُلِّ قُوَّتِهِما تَخْليصَ ٱلقَزَمِ، فَلَمْ تُفْلِحا. وَفَجْأَةً أَخْرَجَتْ « ناصِعَةُ » مِنْ جَيْبِها مِقَصّاً صَغيراً وَقَصَّتْ ذَقْنَ ٱلقَزَم.





ما كادَ ٱلْقزَمُ يَجِدُ نفْسَهُ طَليقاً ، حتّى بَدَتْ عَلائِمُ الاضْطِرابُ عَلى وَجْهِهِ وَٱنْصَرَفَ غاضِباً دونَ أَنْ يَشْكُرَ ٱلْفَتاةَ الَّتي خلَّصَتْهُ مِنَ ٱلْعَذابِ ، وَهُوَ يَقول : « لِيَأْخُذِ الشَّيْطانُ هاتَيْنِ ٱلْفَتاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُشَوِّهانِ وُجوهَ النَّاسِ ... » ناسِياً أَنَّهُ قَدْ يَحْدُثُ لَهُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ في مَرَّةٍ قادِمَة .

* * *

في ذاتِ يَوْمٍ بَيْنَما كانَتِ ٱلْفَتاتانِ « ناصِعَةُ » وَ « قانِيَةُ » ذاهِبَتَيْنِ إِلى ٱلْمَدينَةِ عَلى مُحاذاةِ النَّهْرِ ، وَجَدَتا ٱلْقَزَمَ اللَّعينَ يَتَأَوَّهُ وَيَصْرُخُ مِنَ ٱلأَلَم .

جاءَ ٱلْقَزَمُ لِلصَّيْدِ عَلى شاطِئِ النَّهْرِ فَعَلِقَتِ الصِّنّارَةُ في ذَقْنِهِ وَأَخَذَتِ السَّمَكَةُ ٱلْعالِقَةُ بِها تَعُضُّهُ وَتَشُدُّ بِهِ حَتّى كادَت تُودي بِهِ إِلى النَّهْر .

أَسْرَعَتِ ٱلْفَتاتانِ ـــ بِدونِ تَرَدُّدٍ ـــ وَقَصَّتا ما تَبَقّى



مِنْ ذَقْنِ ٱلْقَزَمِ لِيُخَلِّصاهُ مِمّا هُوَ فيه .

ما كادَ ٱلْقَزَمُ يَتَمَتَّعُ بِحُرِّيَّتِهِ حَتّى ظَهَرَتْ شَراسَتُهُ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ وَقالَ لِلْفَتاتَيْنِ :

ـــ كلَّ مَرَّةٍ أَلْتَقي بِكُما تَقُصّانِ خُصْلَةً مِنْ ذَقْني وَبِذٰلِكَ تُشَوِّهانِ وَجْهي ، لَقَدْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أُقَدِّمَ لَكُما هَدِيَّةً مِنَ اللآلِىءِ وَٱلأَحْجارِ ٱلْكَريمَةِ ، وَلٰكِنِّي أَرى أَنَّكُما لا تَسْتَحِقّانِها .

في ٱلْمَساءِ عادَتِ ٱلأُخْتانِ إلى مَنْزِلِهِما ، وَعِنْدَ مُرورِهِما في إِحْدى الطُّرُقِ الضَّيِّقَةِ شاهَدَتا عَجَباً . لَقَدْ كانَ ٱلْقَزَمُ راكِعاً عَلى رُكْبَتَيْهِ أَمامَ صُنْدوقٍ حَديدِيٍّ مَليءٍ بِالْمُجَوْهَراتِ وَٱلأَحْجارِ ٱلْكَريمَةِ وَاللآلِىءِ اللاّمِعَةِ مِمّا لا يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ وَلا يَخْطُرُ عَلى بالِ إِنْسان .





ما كادَ ٱلقزَمُ يراهُما حتّى ٱسْتَشاطَ غضباً وصرخَ فيهِما قائِلاً :

ـ أسرِعا في طريقِكُما أيَّتُها ٱلفضولِيَّتان . إنَّ هٰذهِ لَيْستْ لِأَمْثالِكُما مِنَ ٱلحمْقاوات .

وفَجْأَةً برزَ مِنْ بَيْنِ ٱلأَشْجارِ دُبٌّ ، سرْعانَ مـا عرَفَتْهُ ٱلفَتاتانِ ، وهَجَمَ على ٱلقزَمِ يُريدُ ٱلفَتْكَ بِهِ .

أَحسَّ ٱلقزَمُ بِالْخَطَرِ فَرَفَعَ يدَيْهِ ٱلاثْنَتَيْنِ مُسْتَرْحِماً وَقالَ لِلدُّب :

ـ إرْحَمْني يا سَيِّدي ، لَسْتُ سِـوى قَزَمٍ صَغيرٍ لا أَمْلِكُ الضُّرَّ لِأَحد . أُقْتُلْ ، إنْ شِئْتَ هاتَيْنِ ٱلْفَتاتَيْنِ الشَّرِسَتَيْنِ !.. إرْحَمْني يا سَيِّدي إرْحَمْني .

لَمْ يُصْغِ الدُّبُّ لِٱسْتِعْطافِ ٱلْقَزَمِ بَلْ صَفَعَهُ بِيَدَيْهِ صَفْعَةً طَرَحَتْهُ عَلى ٱلأَرْضِ فاقِدَ ٱلْحَياة .





وَلِلْحالِ تمزَّقتْ فرْوَةُ الدُّبِّ وَخرجَ مِنها شابٌّ جميلٌ، أَنيقُ ٱلْمَظْهَر .

لَمْ تُصدِّقْ « ناصِعَةُ » وَ « قانِيَةُ » ما شاهَدَتْهُ عَيْناهُما وَلٰكِنَّ صَوْتَ صَديقِهِما رَدَّ إِلَيْهِما طَمأْنينَتَهُما وَهُوَ يَقول:

ـــ « لا تَعْجَبا يا صَديقَتَيَّ مِمّا رَأَيْتُما ، أَنا أَميرٌ ، وَهٰذا ٱلْقزَمُ الَّذي قَتَلْتُهُ الآنَ أَمامَ أَعْيُنِكُما قَدْ سَحَرَني ذاتَ يَوْمٍ لِيَسْتَوْلِيَ على كُنوزي وَحَوَّلَني إِلى دُب .

« وَمُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَأَنا أَبْحَثُ عَنْهُ في كُلِّ مَكان . وَكانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهُ لِأَتَخَلَّصَ مِنْ سِحْرِهِ وَأَعودَ بَشَراً كَما خَلَقَني الله .

« إِنَّ الأَقْزامَ تَخْتَبِئُ طيلَةَ فَصْلِ الشِّتاءِ وَلا تَخْرُجُ أَبَداً . وَلِهٰذا لَجَأْتُ في اللَّيالي ٱلْبارِدَةِ إِلى مَنْزِلِكُما، وَعِنْدَما عادَ الرَّبيعُ بِأَيّامِهِ الضّاحِكَةِ ٱلْبَهيجَةِ ، خَرَجْتُ لِلْبَحْثِ عَنْهُ مِنْ جَديد .



« وَٱلآنَ بَعْدَ أَنْ نالَ جَزاءَهُ تَحَرَّرْتُ مِنْ سِحْرِهِ إِلى ٱلأَبَدْ .

« أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْسى ضِيافَتَكُما ٱلْكَريمَةِ ، كَما أَنَّني لَنْ أَنْسى الطَّريقَةَ الَّتي تَعيشانِ فيها مَعْ أُمِّكُما عيشَةً مِلْؤُها ٱلْبَساطَةُ وَالشَّرَفُ وَٱلْحَنان » .

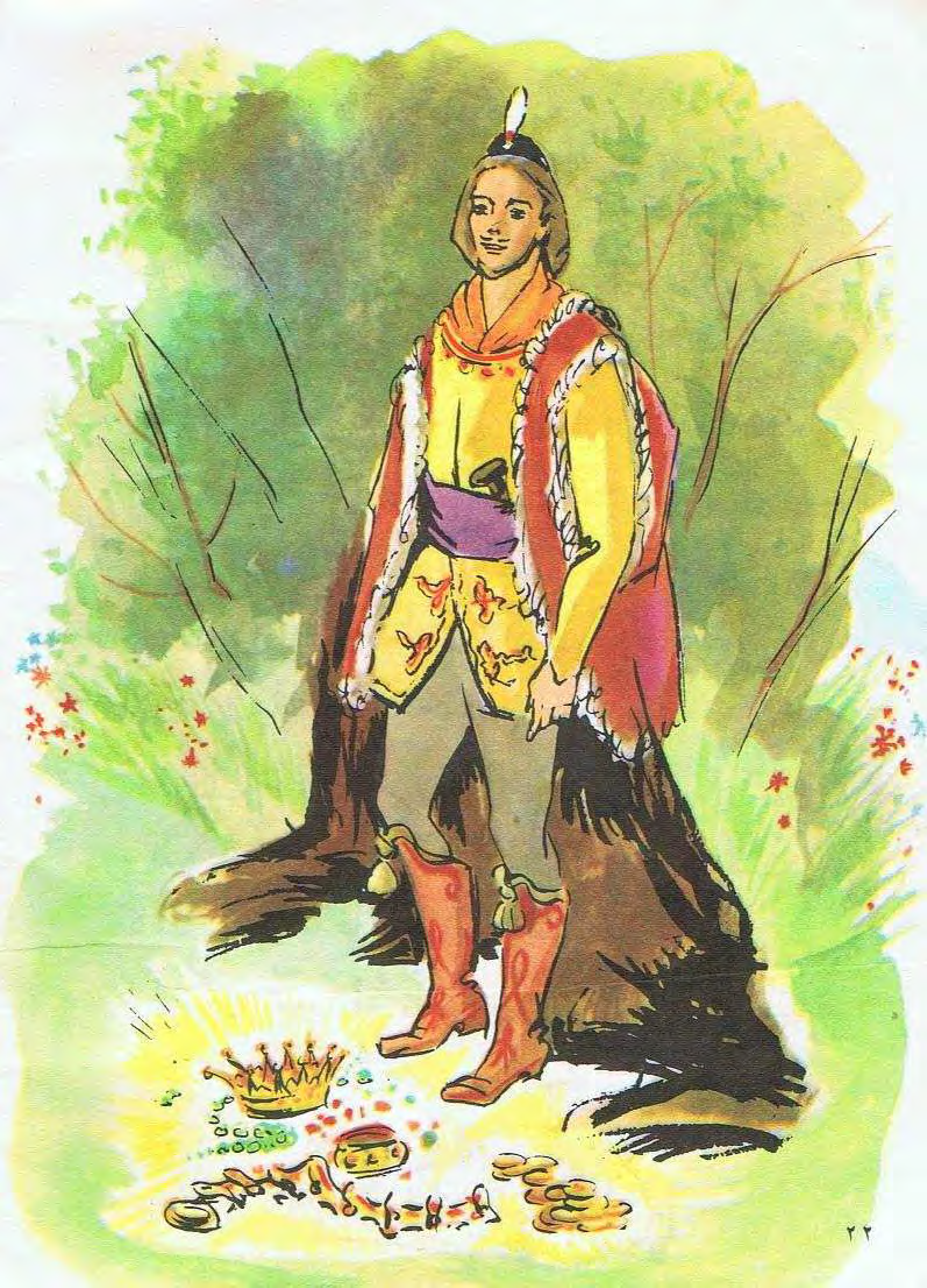
ثُمَّ ٱلْتَفَتَ ٱلأَميرُ إِلى « ناصِعَةَ » وَقال :

ـــ وَإِنّي يا « ناصِعَةُ » أَكونُ أَسْعَدَ إِنْسانٍ عَلى وَجْهِ ٱلأَرْضِ إِنْ قَبِلْتِ أَنْ تَكوني زَوْجَةً لي .

قَبِلَتْ « ناصِعَةُ » طَلَبَ ٱلأَميرِ ، وَعادَتِ ٱلأُخْتانِ بِرِفْقَتِهِ إِلى مَنْزِلِهِما لِيَزُفّا ٱلْبُشْرى إِلى والِدَتِهِما الَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُهُما عَلى أَحَرَّ مِنَ ٱلْجَمْر .

وَكانَ لِلأَميرِ أَخٌ ما كادَ يَرى « قانِيَةَ » حَتّى أَحَبَّها وَطَلَبَ إِلَيْها أَنْ تَتَزَوَّجَه .

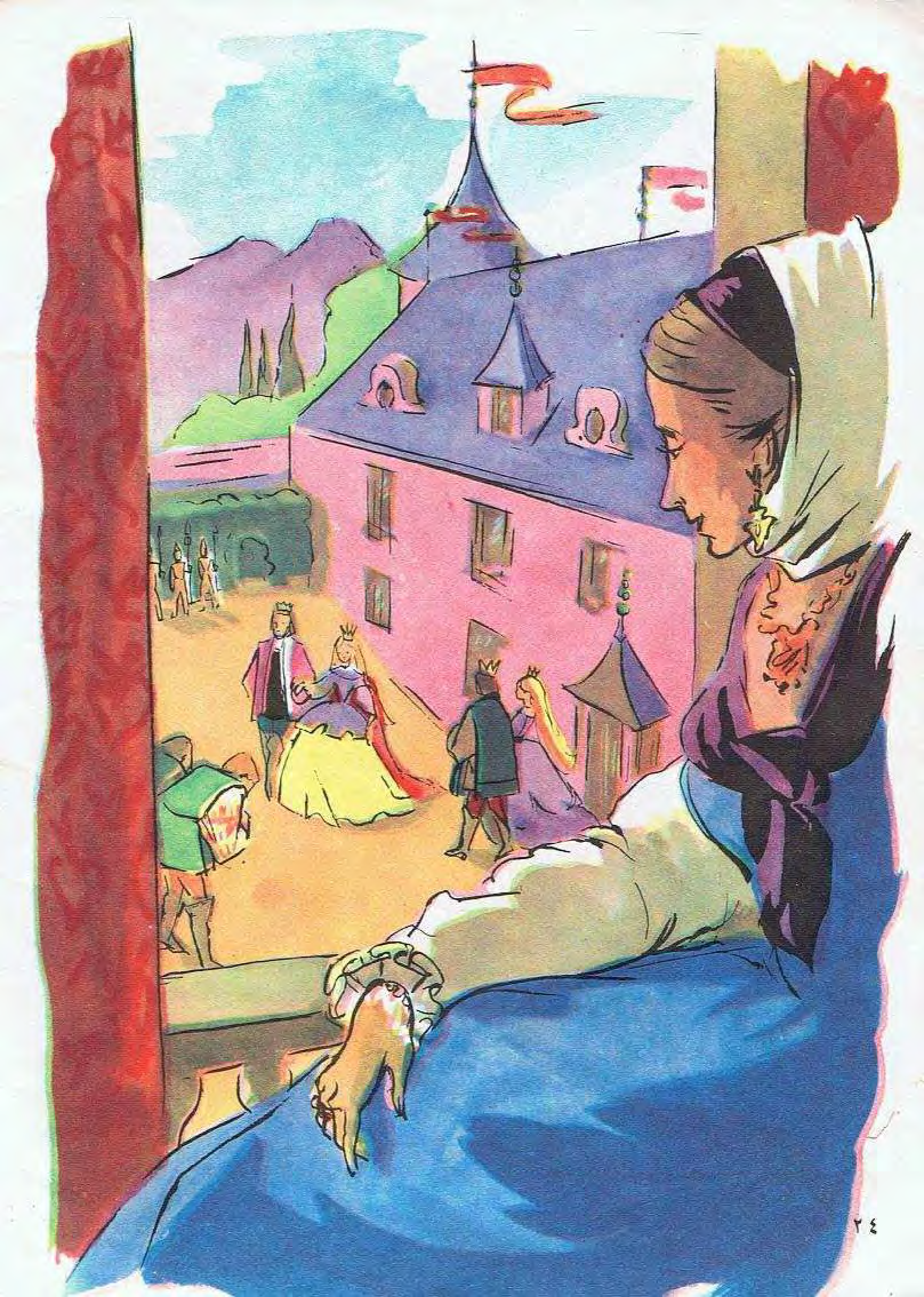




إِحْتُفِلَ بِالْعُرْسَيْنِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، وَعاشَت ٱلأُمُّ سَعيدَةً إِلى جانِبِ بِنْتَيْها في قَصْرِ ٱلأمير . وَلَم يَكُنْ لَها سِوى طَلَبٍ واحِدٍ : أَنْ تُنْقَلَ ٱلوَرْدَتانِ مِنْ حَديقَةِ مَنْزِلِها الصَّغيرِ إِلى جانِبِ نافِذَتِها في قَصْرِها ٱلْفَخْمِ ٱلْجَميل .

وَهٰكَذا تَمَّ نَقْلُ شَجَرَتَي ٱلْوَرْدِ اللَّتَيْنِ ظَلَّتا تَحْمِلانِ وَرْدَهُما ٱلأَبْيَضَ النّاصِعَ وَٱلأَحْمَرَ ٱلْقاني .

طبع في لبنان بمطبعة داغر




70
تطلب من :
مكتبة أنطوان
دار العلم للملايين
حكايات جدتي